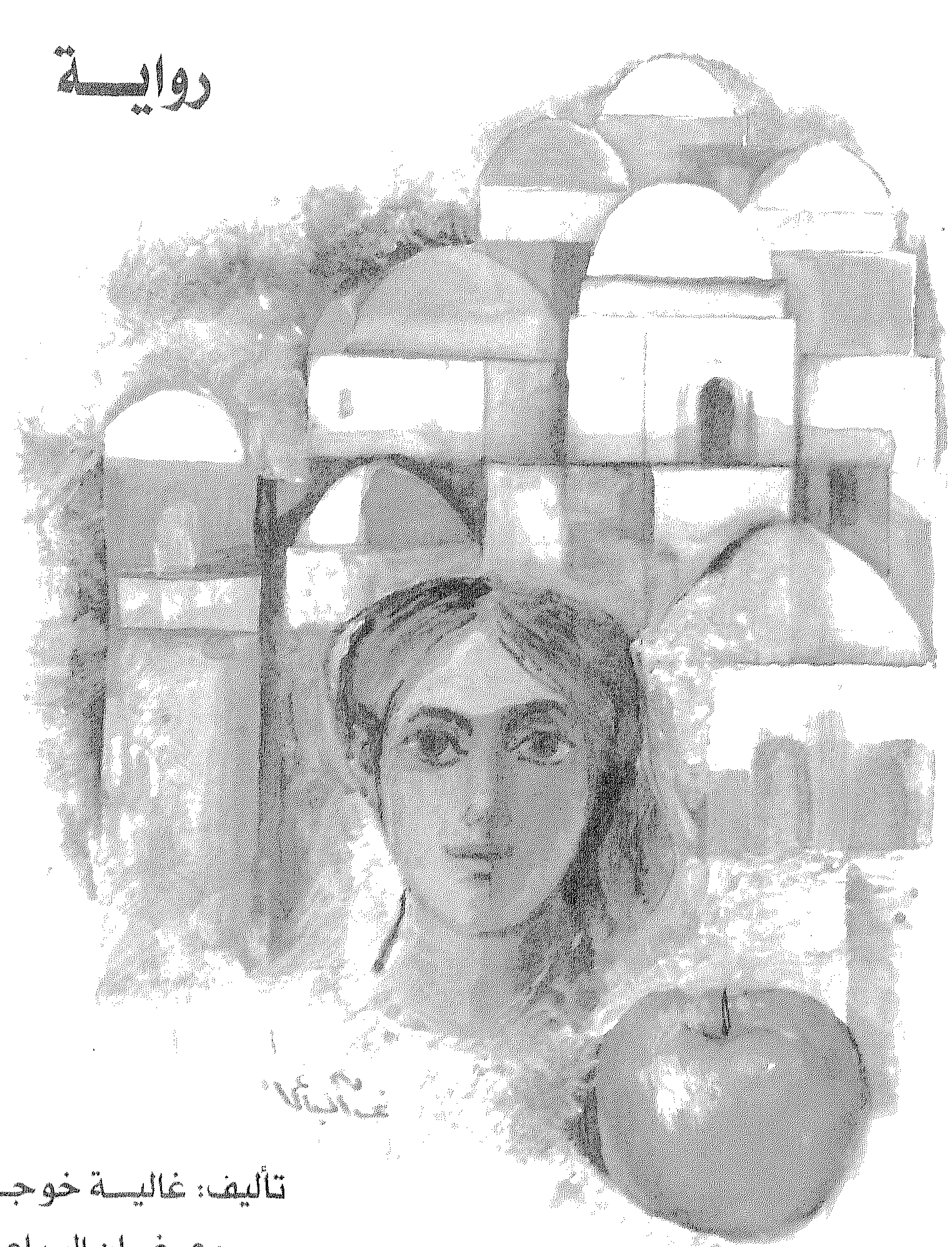
فتاة التفاحة

رواية



تأليف: غالية خوجة
رسوم: غسان السباعي

منشورات وزارة الثقافة ج. ع. س دمشق ٢٠٠٥

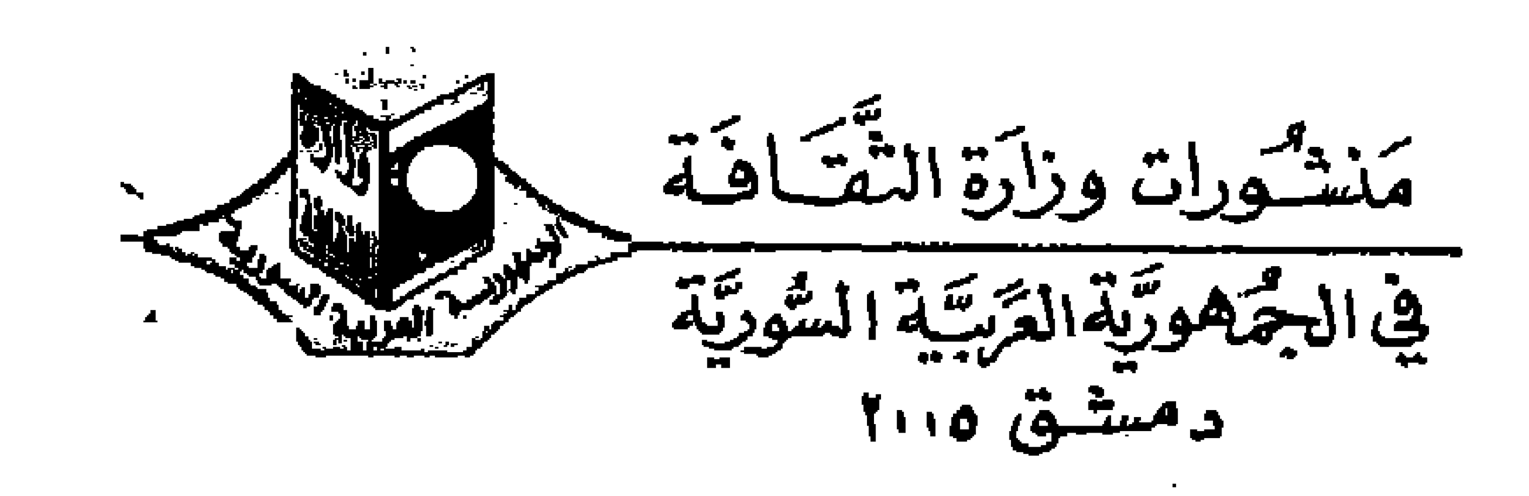
إهـــــــداء ٢٠٠٧
مديرية المطبوعات والنشر – وزارة الثقافة
الجمهورية العربية السورية

فتاة التفاحة

رواية



تأليف: غالية خوجة
رسوم: غسان السباعي


منشورات وزارة الثقافة
في الجمهورية العربية السورية
دمشق ٢٠٠٥

فتاة التفاحة : رواية / تأليف غالية خوجة ؛ رسوم غسان السباعي .-

دمشق : وزارة الثقافة ، ٢٠٠٥ .- ٦٠ ص : مص ؛ ٢٤ سم .

١- ٨١٣,٠٣ ط خ و ج ف ٢- العنوان ٣- خوجة

مكتبة الأسد

الإهـــداء

إلى الطفولة

و هي تتفتّح مع كلّ الأزمنة..

(١)

كان يا ما كان ... في هذا الأوان ..

كان هناكَ، على مُفترَقِ طُرقِ الريحِ والتجارة، مدينةٌ ذات قبابٍ ملوّنة بالأبيضِ والأحمرِ والأزرقِ والأسود.

إذا زرتَها يوماً، ستجدُ نفسَكَ أمامَ حجارةٍ رخاميّةٍ وقُزحيّةٍ وشَمْعيّةٍ تلمعُ في النهارِ طالما أشعة الشمسِ منشغلة بتطهيرِ البيوتِ مِنَ المرض، وبإيقاظِ الأطفالِ إلى مدارسِهم، والأهلِ إلى مشاغلِهم، والأشجارِ إلى عمليةِ التركيبِ الضوئيّ، والعصافيرِ إلى الزقزقة..

و تلمعُ الحجارةُ في الليلِ طالما أشعّةُ القمرِ منهمكة بالاقتراب مِنْ هذهِ الأبنيةِ وحدائقِها ونومِها..

لمعانٌ غريبٌ ومدهشٌ يدخلُ ذاكرتَكَ ويجعلُكَ تشعرُ برائحةِ السحرِ القادمةِ مِنَ البحارِ والجبالِ والغاباتِ والفصولِ وكائناتٍ يعرفُها خيالُكَ.. لذلك، سُمّيتْ هذهِ المدينةُ بمدينةِ القبابِ والسحْر.

كانَ البحرُ يُطوّقُ جزءاً مِنَ المدينةِ، فتهدرُ أمواجُهُ غاسلةً الرمالَ والحصى وكآبةَ الشواطئِ، تهدرُ حاملةً السفنَ والبواخرَ ومراكبَ الصيادين المليئةَ بالشّباكِ والسمكِ والأصداف..

ومرّةً..، حينَ أرادَ والدُكَ الصياد أنْ يأخذكَ معهُ فـي رحلةِ صيدِهِ، سبقْتَـهُ إلى القاربِ ريثما يُحضِرُ أدواتهِ وأصدقاءَهُ، ويمشي كعادتهِ شبْه عابسٍ وشبْه ضاحكٍ، والشّباكُ والحِبالُ المتدلّيةُ مِنْ يديهِ ترسمُ على الرمالِ أشكالاً وآثاراً فوضويّةً لا تلبثُ أنْ تُبدّدَ أجزاءَها أقدامُ الأصدقاء.

وبينما أنتَ في القارب، رأيتَ كيفَ ينزلُ الغروبُ مِنَ السماءِ على الأرض، ويُبعثرُ ألوانَـهُ على ألوانِ القباب، فتبدو الشمسُ وكأنها سقطتْ في مياهِ البحر، وانعكستْ مِنْ أعماقهِ على القبابِ فأصبحت المدينةُ ماسةً هائلة.. بينَها وبينَكَ تُحلّقُ النوارسُ مبتعدةً عن الموجِ بهدوءٍ حيناً، وبصخَبٍ حيناً آخر..

أصواتُ النوارسِ ما زالتْ تبتعد.. وصوتُها المختلطُ بالهديرِ يعبرُ أذنَيْكَ.. كأنكَ سمعْتَ نورساً يسألُ وهو يضحك بغرورٍ واستهزاء:

- لماذا هذهِ القباب ملوّنة بالأبيض والأحمر والأزرق والأسود.. ؟ ها.. قولوا لي.. ومَنْ سيعرفُ الجوابَ، فسأدلّـهُ على مكانِ المحارةِ التي في داخلِها لؤلؤةٌ، وفي داخلِ اللؤلؤةِ حكايةٌ ؟

يخْفتُ صوتُ النوارس وتَتباطأُ حركةُ أجنحتِها..

إنها تُفكّرُ بالحلِّ مثلما أنتَ تُفكّر..

وبينما الغروبُ يغيبُ لتأتيَ مكانَـهُ عتمةُ الليلِ وأضواءُ القمر، تشتعلُ مصابيحُ المنازلِ والطرقاتِ.. فجأةً، مِنْ خلالِ هذا السكونِ المنعش، تسمعُ النورسَ العجوزَ يقولُ وهوَ يُمسّدُ لحيتَـهُ بريْشِ جناحهِ الأيمن :



- رغمَ أني أعرفُ مكانَ المحارة ..

/وهُنا يحدجُ النورسَ الذي سألَ عن الألوانِ بنظرةٍ محذّرة ومؤنّبة/

ثم يضيف:

- لكنني، سأقولُ لكم:

لماذا لهذهِ القباب تلكَ الألوان؟.. ألا يُذكّرُنَا اللونُ الأبيضُ بلَونِ الغيمِ والثلجِ وبأنواعِ ورودٍ وأزهارٍ كثيرةٍ منها الياسمينُ والأقحوان..؟ ألا يُذكّرنا بلونِ ريشِنا وريشِ بعضِ الطيورِ، وبلونِ القلوبِ الصافيةِ، الصادقةِ والبريئة، وبلونِ السلامِ الذي نرمزُ لهُ بحمامةِ الفنانِ الإسبانيّ "بيكاسو" البيضاء؟ وأيضاً، بلونِ القطنِ الذي نصنعُ منهُ أشياء كثيرةً كالملابسِ والمفارشِ والأكفان ؟.. إذَنْ، هو لونُ الحياةِ ولونُ الصفاءِ ولونُ الموت ..

أمّا اللونُ الأحمر، فهوَ لونُ التربةِ التي تعطينا الثمارَ، كما أنهُ لونُ الدمِ الذي يدافعُ عن الوطن، وأكثر ما يشبههُ شقائقُ النعمان .

و لن ننسى بأنّ الأزرقَ - ونظرَ إلى الأعلى- فهتفتْ جميعُ النوارس :

- لونُ السماء.

- أحسنتُم.. الأزرقُ لونُ السماء الذي يمنحُ البحرَ لونَهُ، وكذلك هو لونُ عينَيّ هذا الطفل الوحيد الجالس في القاربِ وهو ينتظرُ أباهُ.. وهو

لونُ العديدِ منَ الورودِ والأشياء. أحبّائي، إنهُ لونٌ يعني الاستمرارَ، استمرار الطبيعةِ والإنسان .

- آ َ... هـ... ءْ.. آ َ هـ ءْ.. سعلَ النورسُ العجوزُ وتابعَ:

- أخيراً.. اللونُ الأسودُ، لونُ الحديدِ ولونُ صخورِ البازلتِ التي يقذفُها البركان، ولونُ الحزنِ واليأسِ والهزائم .. كما أنهُ أحياناً لونُ الاستقرارِ والجَمالِ الذي لوّنَ بهِ اللّهُ تعالى بعضَ ريْشِنَا .

فرحت النوارسُ الصغيرةُ بإجابةِ جدِّهَا، فحلّقتْ حولَهُ وكأنها ترقصُ ..

كلُّ النوارسِ ترقصُ وتغني ما عَدا النورس الذي سألَ عن الألوان، فقدْ ظَلَّ بعيداً عن مهرجانِ إخوتهِ وجَدِّهِ، ولمْ يقتربْ إلاَّ ليقولَ:

- صدقْتَ، جَدَّنَا.. ولكنْ، أينَ مكانُ المحارة، أرجوك..؟

نفضَ النورسُ العجوزُ نفْسَهُ، وقال:

- البارحة، شرحتُ لكَ عن الألوان، فأتيتَ اليومَ لتسألَ عنها بكلِّ هـذا الغـرور.. لذلكَ، فأنتَ لا تعرفُ مكانَ المحارةِ لأنّي لمْ أُخـْبرْكَ عنهُ.. ولكَي لا يصابَ أحدُكم بالأنانيـّةِ والغرور، فإني، فقط، سأوشوشُ البحرَ عنْ مكانِها.. ومَن استطاعَ منكم أنْ يفهمَ على الموج، فإنَّ البحرَ، ذاتَ يومٍ، سيدلّهُ على مكانِ المحارة.. ولنْ يستطيعَ

أحدُكُم أنْ يفهمَ لغةَ البحرِ إلاَّ إذا كانَ في قلبهِ مِنَ اللونِ الأبيضِ ما يُذَكِّرُهُ بالبراءةِ والموت، ومِنْ اللونِ الأحمرِ ما يربطهُ بالوطنِ والأرض، ومِنَ اللونِ الأزرقِ ما يُعلّمُهُ كيفَ يكتبُ بالقلم، ومِنَ اللونِ الأسودِ ما يشدُّهُ إلى الجمالِ والصبر، فذلكَ مِنْ عَزْمِ الأمور.

ألقى النورسُ العجوزُ هذهِ الكلماتِ، وبسرعةٍ، هبطَ إلى البحر.. مدَّ منقارَهُ في الموجةِ الثالثة، ووشْوَشَها عن مكانِ المحارة.. فهبّتْ ريحٌ قويّةٌ حرّكَت المياهَ وأوراقَ الشجرِ وأشعةَ الأضواءِ وجسمَ القاربِ الذي ما زلتَ فيهِ منتظراً والدَكَ..

تمنّيتَ لو تسمع السرَّ الذي باحَ بهِ النورسُ العجوزُ للبحر..، لكنَّ الريحَ حينَ ارتطمتْ بالموجِ ثمَّ بالشجرِ ثمَّ بصخورِ الجبلِ القريبِ، حملتْ صدى ما قالَهُ النورسُ العجوز.

كان الصدى بنفسجيّاً يتوزعُ على التربةِ البعيدةِ، فتنبتُ الزنابقُ وعبّادُ الشمسِ والقرنفلُ والنرجساتُ الصغيراتُ المتجمّعاتُ حوْلَ شجرةِ السنديانِ مثلما تجتمعُ فراخُ العصافيرِ حوْلَ منقارِ أمِّها المليءِ بالطعام .

الصدى الذي يشبهُ كلماتِ النورسِ العجوز، ما زالَ يهربُ منَ الموجةِ الثالثة إلى الرمالِ والحصى وجذوعِ أشجارِ الصنوبرِ والصفصافِ والسرو.. ثمَّ..، يصل.. إلى.. أُذُنَيّ طفلِ القارب..

هل تستطيعُ أنْ تفكَّ ما قالهُ الصدى.. الصْ ... صَ.. دَى....؟



وحدَكَ عرفتَ مكانَ المحارة.. أمّا النوارسُ الصغيرةُ، فلقدْ حزنتْ لأنها لم تفهمْ كلماتِ جدّها التي حَكاها البحرُ، لكنها، ظلّتْ تحلّقُ وراءَ جدّها المتّجهِ إلى عتمةِ الفضاء. وظَلَّ النورسُ المغرورُ وحيداً.. وبعدما احمرَّتْ وجنتاهُ وعيناهُ مِنَ الخجلِ والدمع، لحِقَ بالسرْبِ نادماً ندامةَ الأرنبِ الذي تسابقَ مع السلحفاةِ، فانتصرتْ عليهِ.

بدأْتَ تحدِّقُ في البحرِ باحثاً عنْ مكانِ المحارة.. وكانت كلُّ الموجاتِ تقول :

- إنها هُنا.. إنها.. هُنا.. هُنا.. هُـ ... نـَا.. نـَا ... ا ْ ا ْ ا ْ ا ْ..

زاغتْ عيناكَ بينَ السماءِ التي تُعيدُ كلامَ الموجِ، وبينَ الموجِ الذي يُعيدُ كلامَ النورسِ العجوز. كأنّ البحرَ أصبحَ عميقاً أكثر.. والليلُ بِسَوادِهِ الأنيقِ غطّى الأشجارَ والبيوتَ والأشياء..، فصارت كالظلالِ، أو الأشباحِ، أو الفراغ.....

تشعرُ بالوحشة..، فيرتعشُ جسدُكَ الصغيرُ معَ النسائمِ المالحة.. كأنكَ ابتعدتَ عن الزبَدِ المتناثر.. كنتَ تُجدِّفُ بالقارب.. وَ.. رويداً..، رويداً، تأخذُكَ لغةُ البحرِ عن شواطئها المصطخبةِ بالرجالِ والأطفالِ والمراكب..

الآن، أنتَ وأشعةُ القمرِ وحدكُما في هذا البحر..

الصمتُ والنعاسُ يملآنِ مدينةَ القبابِ والسحْرِ التي تركتَها وراءَكَ.. تتلفّتُ..

فترى مركبَ صيدٍ يُبحِرُ قربَكَ.. وإذْ يراكَ ربّانُهُ، يصيحُ بك:

- انتبهْ يا صغيري، فبعْدَ قليلٍ، سيغضبُ الموجُ، وسيبردُ الهواءُ.. عليكَ أنْ ترتدي المعطفَ وأنْ تُجدِّفَ بقوّةٍ أكبر.

- نعم يا عمّ.. سألبسُ معطفي حالاً وأُجدِّفُ بكلِّ قوايَ، فلا تقلقْ.

يتابعُ الصيادونَ رحلتَهُم، وتتابعُ أنتَ ارتداءَ معطفِكَ وتجديفَكَ نحوَ الموجةِ الخضراء التي تُخبّئُ في أعماقها المحارةَ الناطقة.

موجةٌ تتحركُ بينَ جرْفٍ صخريٍّ مرتفعٍ جدّاً، وبينَ صخرةٍ كبيرةٍ مزدحمةٍ بأعشابٍ طويلةٍ تمتدُّ في المياهِ، صخرة يدورُ حولها الموجُ مُكوّناً منها جزيرةً صغيرةً مليئةً بورودٍ وأزهار اختلفتْ ألوانُها وروائحُها الجميلة..

تهمسُ:

- هذا ما قالهُ النورسُ العجوزُ للبحر .

تفتّشُ بين الموجاتِ.. فتلمح سراخسَ خضراءَ وحمراءَ وصفراءَ شكّلتْ كلمةَ: "هُنا"..!

يرتجفُ قلبُكَ فرَحاً وسعادة.. وتضغطُ يدَيْكَ على المجاديفِ مُبعِداً الموجَ عن قاربِكَ المقتربِ منَ المجهول.

أَليستْ هذهِ السراخسُ هي ذاتُها التي وصفَها الصدى..، ذلكَ الصدى الذي، لِتوِّهِ، يخرجُ مِنَ الجرْفِ الصخريِّ الشاهق، مِنَ الموجِ، مِنَ السماءِ، ومِنْ أُذُنَيْكَ..؟؟؟..

قلتَ في نفْسِكَ:

- نعم، إنها ذاتُ السراخس.

تفركُ عينَيْك وتتأكّدُ من الكلمةِ المكتوبة:

".. هُنَـا.. " ..

و بينما أنتَ تتساءَلُ وتتأكد، تَـرى، بعدَ موجتَيْنِ منْ كلمةِ «هُنا» التي كتبتْها السراخسُ الخضراءُ والحمراءُ والصفراءُ، تَرى صخرةً ضخمةً، أعشابُها مضفورةٌ معَ السراخس، وورودُها تنشرُ الروائحَ الزكيّة.. تستنشقُ العطورَ الرائعةَ وَ.. تتقدَّم..، تتقدّمُ أكثر..

كانَ العرقُ يقطرُ من جبينِك... وكانت بعضُ الأزهارِ الساقطةِ من هذه الصخرةِ على الموج، مبلّلةً.. لم تكن حزينةً لأنها كانت تعكسُ ضوءَ القمرِ فينكشفُ قربها لونٌ أخضرٌ ساحر .

تصرخُ بأعلى فرحِكَ :

- وصلتُ الموجةَ الخضراء.. وصلتُ الموجةَ الخضراء..

فيردِّدُ الجرْفُ الصخريُّ معكَ، ويمتلئُ المكانُ بصَدى صوتكَ:

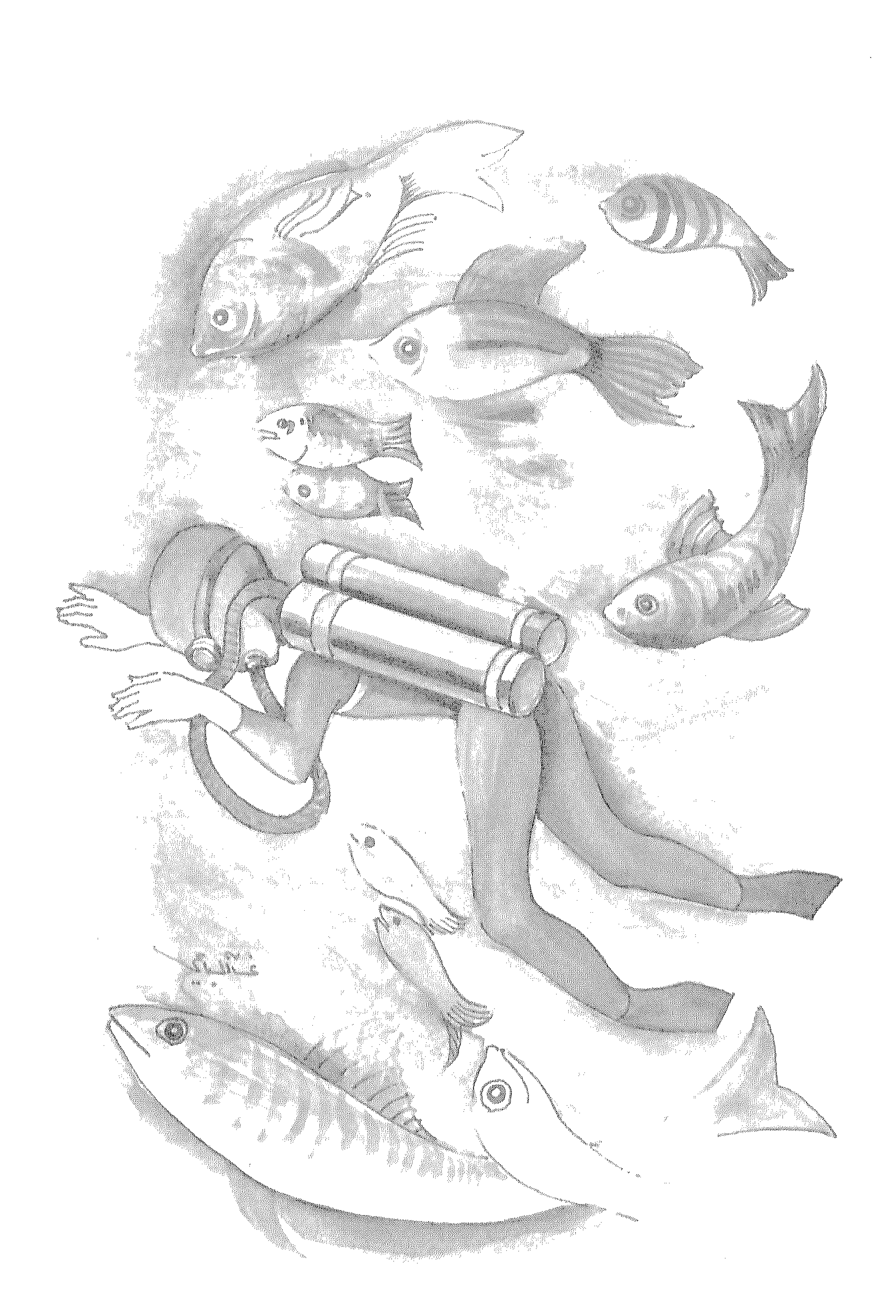
- الموجةُ الخضراء.. الـْ.. مَوْجَةُ الـْ.. خَضْـ.. رَاء.. رَاء.. رَاء.. را ْ ا ْ ا ْ ء ....

ها قد وصلْتَ إلى الصخرةِ العملاقة..

تنهضُ بعدما وضعتَ المجاديفَ في أمكنتها. تُخرِجُ حبلاً قوياً.. تربطُ القاربَ بنتوءِ الصخرة.. ترتدي ثيابَ الغطس.. وَ.. تقفز..

تغوصُ في الأعماقِ تاركاً الموجَ والقاربَ على سطحِ البحر .

تغوصُ، فتَرى الأسماكَ وهي تبتعدُ عنكَ.. أسماكٌ جذابةٌ بحُجومٍ وألوانٍ مختلفة، لكنها خائفةٌ منكَ. تبحثُ بعينَيْكَ عن المرجانِ الأحمرِ والأبيضِ الذي تختبئُ فيهِ المحارة ..



الموجُ هُنا، فـي أعماقِ البحرِ، هادئٌ، دافئٌ، وحنون..

اللحظةَ، تسمعُ همْساً يُناديكَ:

- هُنا.. هُنا... تقتربُ أكثر..، فيُحيّيكَ المرجانُ:

- أهلاً وسهلاً بابنِ الكرام. إنكَ تلميذٌ متفوّقٌ يقرأُ الشعرَ والقصصَ، ويحبُّ وطنَهُ وأرضَهُ والرسمَ والموسيقا والمغامَرة.. لذلك، فأنا سأهديكَ هذه المحارةَ النائمةَ هُنا منذُ عصور.

كانت قناديلُ البحرِ تسبحُ حوْلَ خصرِكَ وساقَيْكَ، ثمَّ تضغطُ أذرُعَها الهُلاميّةَ دافِعةً الماء.. وقنديلاً..، قنديلاً..، تقفُ فوق المرجان.

نظر إليها.. يا الله..، لقد تكوّنت القناديلُ البحريةُ على شكْلِ هَرَمٍ لهُ عينٌ واحدة..!

إنكَ أمامَ مشهدٍ ساحرٍ..

تحاولُ أنْ لا تخاف..

تمدُّ يدَيْكَ لتأخذَ الهديةَ: المحارةَ..

لكنّ المرجانَ يقولُ لكَ وهو يشيرُ إلى هَرَمِ القناديل:

- استمعْ لوزرائي.

تفتحُ عينُ الهَرمِ أجفانَها، فتصيرُ على هيئةِ شفتَيْنِ ستنطقان..

- لا تخَفْ..:

يأتيكَ صوتُ المرجان الأحمر.

- هل كنتَ ستهربُ؟:

يسألكَ المرجانُ الأبيض.

ترتبكُ، وتُبعِدُ ذراعَيْكَ عن صدرِكَ، وترفعُ صوتَكَ:

- لا..، لستُ خائفاً ولا هارباً.. بل أنا مدهوشٌ وفرِحٌ..

يضحكُ المرجانُ فتضحك..

و تبدأُ عينُ الهَرمِ التي صارتْ فماً بالكلام .

(٢)

كان يا ما كان.. في سالِفِ العصرِ والزمان.. فتىً يشبهكَ كثيراً بشجاعتهِ، وبحبِّكَ للصدقِ والعلْمِ والعمل.

وفي يومٍ منَ الأيام..، هاجمَ الأعداءُ بلادَهُ، فانضمَّ إلى المجاهدينَ وحرَّرَ أرضَهُ معهم.

لكن ، يومَ احتلَّ الأعداءُ بلادَهُ وخرّبوها، أصيبَ والدُهُ ، ولشدّةِ حزنهِ، بالعمى والشلل. فوصفَ لهُ الأطبّاءُ تفاحةً غريبةً لا يوجدُ على الأرضِ منها إلاّ في شجرةٍ واحدةٍ في بلاد "الواق الواق". وهذهِ البلادُ مفقودةٌ منذ زمنٍ تحتَ إحدى البحيراتِ القديمةِ والبعيدة.. ولا يمكنُ الوصولُ إليها إلاّ عن طريقِ الحصانِ الماردِ "دُرُّ ماء" الضائعِ أو الميت.. فهُم لا يعرفونَ عن هذا الحصان شيئاً.

ذهبَ الفتى إلى المنزل..، جهَّزَ ما يلزمهُ للسفر، وودّعَ أباهُ مقبِّلاً يدَيْهِ ووجهَهُ.

كانت دموعُ الأبِ تقول:

- اللّهُ معكَ يا بُنَـيَّ العزيز .

و دموعُ الابنِ تقول :

- إنْ شاءَ اللهُ لنْ أعودَ إلاّ والتفاحةُ الشافيةُ معي.

تجوَّلَ الفتى في كلِّ إسطبلاتِ المدائنِ والقُرى التي عبَرَها.

مرَّتْ أيامٌ وأيام، ولمْ يجدْ حصانَ البرْق.. وعندما قرَّرَ العودةَ إلى مدينتهِ، كانت الخيبةُ تسكنُ وجهَهُ، وكانت دموعُهُ تُبَلِّلُ جذعَ الشجرةِ التي يستندُ عليها.

وبينما هو في هذه الحال، مرَّ بهِ رجلٌ عجوزٌ تظهرُ عليهِ علاماتُ الحِكْمةِ والوَقار، وسألَهُ عن سببِ حزنهِ وهَمِّهِ. وبعدما علِمَ الشيخُ بمصيبتهِ، دَلَّهُ على إسطبلٍ قديمٍ وقريبٍ فيهِ الحصانُ المارد.

شَكرَ الفتى الرجُلَ الحكيم، وأسرعَ الخُطا إلى ذلك الإسطبل.

كان السائسُ رجلاً فقيراً لا يعرفُ منَ الدنيا غيرَ العنايةِ بالأحصنة. وحالَمَا رأى الفتى قادماً نحوهُ، نهضَ عن كرسيِّهِ القشِّيِّ مُرحِّباً وسائلاً:

- أهلاً يا بُنيّ. ماذا تريد؟ لديَّ أحصنةٌ عربيّةٌ أصيلةٌ تناسبُكَ.. تفضّلْ إلى هُنا..

دخلَ الفتى ورأى الكثيرَ من الأحصنةِ النظيفةِ والجميلة، وبألوانٍ مختلفة، منها البُنّيُّ المائلُ للسواد، الأبيضُ المنقّطُ بالأسود، الأبيضُ الناصع..، الأشقرُ الترابيّ ... وفي زاويةِ الإسطبلِ، لمحَ حصاناً هزيلاً لا يأكلُ البرسيم، بل كان أمامه لوزٌ وسُكّر.

- "إنهُ هو.. كما وصفهُ لي العجوزُ تماماً..": قال ذلكَ في نفْسهِ، وسألَ السائسَ:

- كم ثمنُ هذا الحصان؟.

عجبَ السائسُ من الفتى كيف يشتري هذا الحصان، رغْمَ أنّ الأحصنةَ الأخرى أفضل وأسمن وأقوى..! إنهُ ينتظرُ موتَهُ، لا.. بيْعَهُ..!..

ضحك السائسُ قائلاً:

- لكَ أنْ تُحدِّدَ الثمنَ كما تشاء.

دفعَ الفتى مبلغاً من المالِ وأخذَ الحصانَ المارد..

و قبْلَ أنْ يخرجَ، قالَ لهُ السائس:

- إنهُ لا يأكلُ غيرَ اللوزِ والسُكّر.

كان السائسُ يقولُ ذلك وهو يُناولُ الفتى كيساً مليئاً بطعام الحصان المفضّلِ على سبيل الهدية .

و حينما صارَ الفتى وحصانُهُ بعيدَيْنِ عن المدينة، همسَ الفتى في أذُنِ الحصان:

- يا « دُرّ ماء » أعرفُ بأنكَ تتحدثُ .. أرجوكَ أنْ تدلّني على تفاحةِ الواق الواق.

مثْل نايٍ صباحيٍّ يعبرُ الأوديةَ والسهولَ، جاءَ صوتُ « دُرّ ماء » :

- ضَعْ لي لوزاً وسُكّراً.

أكلَ « دُرّ ماء »، ثمّ.. طلبَ من الفتى أنْ يركبَ ظَهرَه ، وأنْ يتمسّكَ جيداً بعدما يُغمض عينَيْهِ لأنه سيطيرُ بهِ كالبرْق .

صعدَ الفتى وأغمضَ عينيهِ .

كانت الرياحُ قويّةً، والرعدُ كالصواعقِ يبعثرُ صوتَهُ في الفضاء، وكانت الأمطارُ غزيرةً، ممّا منعَ « دُرّ ماء » منْ متابعةِ طريقِه، فقرر النزول .



هبطَ .. كان المكانُ خراباً.. المنطقةُ منعزلةٌ.. وفي البعيد، لا يوجدُ غيرُ طاحونةٍ هوائيّـةٍ..

قال « دُرّ ماء » :

- سنصلُ، بعدَ قليلٍ، إلى تلكَ الطاحونةِ.. أنتَ تطرقُ بابَها، وتتحدثُ إلى صاحبِهَا لعلّنا نقضي الليلةَ عندَهُ .. فأنا أمام غيرِكَ لا أتكلّمُ ولا أطير..

بيدِهِ الباردة، طرقَ الفتى الباب.

- غريب... مَنْ يطرقُ بابي في هذا الوقت؟: همسَ صاحبُ المطحنة وهو متّجهٌ إلى الباب.

- مَنْ..، مَن الطارق..؟

وَ..، فتحَ البابَ، فرأى الفتى وحصانَـهُ مُبلَّلَيْنِ بالماءِ والطين، وأحسَّ بالرياحِ تعصفُ بشدّة..

استأذنَهُ الفتى بالنومِ عندهُ هذه الليلة.

تفحّصَ صاحبُ المطحنة الحصانَ، فعرفَ أنهُ حصانُ البرْق.

- أهلاً وسهلاً على الرحْبِ والسعة.

أكياسُ الطحينِ والقمحِ والشعيرِ تملأُ المكانَ مثلما يملأُ الغبارُ الأخشابَ المتناثرة.

كلُّ شيءٍ كادَ أنْ يكونَ أبيضاً بسببِ ذرّاتِ الطحين..، ما عدا سجّادة جلسَ عليها صاحبُ المطحنةِ وضيفُهُ.

- لا شكَّ أنكَ جائعٌ.

- قليلاً.. : أجابَ الفتى.

صاحَ صاحبُ المطحنةِ على خروفهِ المسحور :

- يا خروف ...

فأتى الخروفُ لاهثاً.!

استغربَ الفتى، ودقَّ قلبُـهُ باضطراب .

تابعَ صاحبُ المطحنة:

- قُـمْ يا خروف وانذبحْ.

اضطربَ الفتى أكثر..

وكان صاحبُ المطحنة يأمرُ الخروفَ، فيستجيبُ لهُ الخروفُ حتى وهو مذبوحٌ:

- انسلخْ يا خروف..!

- انطبخْ..!

وبعدَ لحظاتٍ، كان الخروفُ على المائدة.!!

- تفضّلْ..، ولكنْ، أرجو ألاّ تكسرَ أيّةَ عظمةٍ منْ عظامِ الخروفِ وأنتَ تأكل.

عندما انتهى الاثنانُ منَ الطعام، قالَ صاحبُ المطحنة:

- قُـمْ يا خروف وارتبطْ..

عادَ الخروفُ إلى مكانهِ مربوطاً ودونَ أنْ ينقصَ منهُ أيُّ شيء..!!! .

كان صاحبُ المطحنةِ عفريتاً بهيئةِ إنسان.. وليحصلَ على الحصان، اقترحَ على الفتى أنْ يلعبا معاً لعبةَ الاختفاء. كلُّ واحدٍ منهما يختفي ثلاثَ مرّات، ومَنْ يعرفُ مكانَ الآخرِ سيخسرُ حصانَـهُ، أو..، خروفَـهُ..!.

أومأ « دُرّ ماء » برأسِه للفتى: وافِقْ.

فعَصبَ صاحبُ المطحنةِ عينَـيّ الفتى واختفى قائلاً:

- أين أنا ؟..

فكَّ الفتى العُصابةَ عنْ عينَـيْهِ وصعدَ الدرجَ الخشبيَّ القديم.. فتّشَ الغرفَ وأكياسَ الدقيقِ والحبوب.. بحثَ في كلِّ المطحنة.. وحين لمْ يجدْ أثَـرَ المختفي، اقتربَ من "دُرّ ماء"، فوشْـوَشَـهُ. عندها، صاحَ الفتى :

- أنتَ ضفدعٌ على ضفـّةِ النهر.. فاخرجْ عليكَ الأمان.

ظهرَ صاحبُ المطحنةِ غاضباً.. ثم عَصبَ عينَـيّ الفتى مرّةً ثانية، قائلاً بثقة:

- أين أنا؟..

فَكَّ الفتى العُصابةَ واقترب بحذرٍ منْ "دُرّ ماء"..

ثم، قال:

- أنتَ حبّـةُ شعيرٍ في حجَرِ الطاحونة.

ظهرَ صاحبُ المطحنةِ مُصْفَـرَّ الوجهِ.. وَ.. مرّة ً ثالثةً، عصبَ عينَـيّ الفتى:

- أين أنا؟..

أخبرهُ « دُرّ ماء » بمكانهِ أيضاً..، فصاحَ ضاحكاً:

- أنتَ عنكبوتٌ في سقفِ الطاحونة.

فظهرَ وقال بصوتٍ مُرْعِدٍ مُتوعّدٍ:

- سأخسِّرُكَ.. هيا اعصبْ عينَـيَّ، واختبئْ.

عصبَ الفتى عينَـيّ العفريت، وجاء إلى "دُرّ ماء" التي خبّـأتْـهُ فـي أذنِهـا، ثم قال:

- أين أنا ؟

فكّ صاحبُ المطحنةِ العصابةَ عن عينيهِ. بحثَ فـي كلِّ الأمكنة.. وحين لم يجدْهُ صرخَ :

- "اظهرْ وبانْ عليكَ الأمانْ" .

مرّةً ثانيةً ، عصبَ الفتى عينَـيّ العفريت ، فخبّأهُ « دُرّ ماء » فـي فمه ..

مرّةً ثالثةً، وضعهُ بين شعره الطويل، الطويل..

فقال العفريت:

- لقد خسرتُ الرهان.. "اظهرْ وبانْ عليكَ الأمانْ".. سأعطيك الخروفَ ليسَ لأنني الخاسر..، بل، لأنكَ ولدٌ شجاعٌ ومهذب.

وعندما بدأ الفجرُ يتسلّلُ من نوافذ الطاحونة، كانت السماءُ وادعةً، والغيومُ دافئةً.. فجهّزَ الفتى نفسَهُ وحصانَـهُ وخروفَـهُ للرحيل.

ودّعَ العفريتَ..، ومضى..

كانت الدروبُ تفوحُ برائحةِ المطرِ المختلطةِ برائحةِ الأرض.

و بعدما صارت الطاحونةُ خلْفَ الجميعِ كنقطةٍ صغيرة، قال « دُرّ ماء » :

- اصعدْ، وأغمضْ عينَيْكَ، واربط الخروفَ بعنقي، ثمّ ضعْـهُ أمامكَ وامسكْـهُ بيدٍ وامسكني بالأخرى.

لمْ تطُلْ لحظاتُ الطيران ِ التي طوى خلالها "دُرّ ماء" مسافاتٍ شاسعةً، صحراويّةً، بَحْرِيّةً، وخضراءَ...

و ها هو يحطُّ على هضبةٍ كثيفةِ الأشجارِ والنباتات، مُخَلّفاً رياحاً قويّةً تهزُّ كلَّ الأوراقِ والأعشابِ والأغصان..

ثم، يخاطبُ الفتى :

- انزلْ.. وانظرْ إلى تلكَ البحيرةِ المتلألئة.. فَتحْتَها بلادُ الواق الواق المشعة. إنها بلادي التي أغرقَها الساحرُ من أجلي.

ذُهِلَ الفتى منْ قولِهَا ، فتابعتْ:

- عندما تعودُ سأشرحُ لك.. أمّا الآن، فعليكَ، وقبْلَ أنْ يقفَ قرصُ الشمسِ في وسطِ البحيرةِ، عليكَ أنْ تُحضِرَ تفاحةً منَ الشجرةِ الضخمةِ الواقفةِ في ساحةِ القصر. خُذْ هذا المنديلَ المصنوعَ منَ الذهبِ والفضة، لأنكَ ستُصادفُ حنشاً عملاقاً..، إذا كان نائماً فيا سعْدَكَ، وإذا كان مستيقظاً فيا تعْسَكَ لأنهُ سيأكلك . ضعْ هذا المنديلَ على وجههِ بحيث يغطي عينيْهِ وأذنَيْهِ، فتجفّ مياهُ البحيرةِ وتستطيع الدخول.. ثمّ اقطفْ التفاحة، وعندما ترجع، استعِد المنديلَ، وضعْ تفاحتَكَ فيهِ.. إنني لا أستطيعُ أنْ أتجاوزَ هذهِ الهضْبةَ لأنني سأحترق .. و . أموت ..

فهمَ الفتى ما قالهُ "دُرّ ماء" وركضَ لينفّذَهُ.. عينا الحنشِ مفتوحتان.. إنها إشارةٌ لنومهِ.



وضعَ الفتى المنديلَ على وجهِ الحنش، فجفّت البحيرةُ، ودخلَ خفيفاً إلى المدينة.. الآن، هو في حديقةِ القصر.. وبينما يقطفُ التفاحةَ، سمعَ أصواتاً تردّدُ:

- غريبٌ امسكوهُ.. غريبٌ امسكوهُ.. غريبٌ امسكوهُ..

تلفّتَ الفتى يُمنةً ويُسرةً.. لم يرَ أحداً.. والصوتُ ما زالَ مستمرّاً:

- غريبٌ امسكوهُ ..

كان الغصنُ بيدِهِ يميلُ، ومعَ الأشجارِ والأغصانِ والجذوعِ والجدرانِ والأعشابِ يردِّدُ:

- غريب امسكوهُ.. غريبٌ.. امْ.. س.. كُوهُ..

قطفَ التفاحةَ فاختفت الأصوات، وعاد ليأخذَ المنديلَ الذي غطّى بهِ وجهَ الحنش النائم. غلّفَ التفاحةَ بالمنديل، ورجعَ إلى "دُرّ ماء"، ووجههُ مبتهجٌ بينما لسانُهُ متسائلٌ.. أدركتْ حالتَهُ "دُرّ ماء" فقالت:

- عندما يشفى والدُكَ سأقصُّ عليكَ سيرتي..

شعرَ الفتى بدمعةٍ كبيرة تختبئُ في عينَيٍّ "دُرّ ماء"..، فَهزّ رأسهُ موافقاً، وصعدَ ظهرها حاضناً التفاحةَ والخروف، وأغمضَ عينيهِ حالِماً بشفاءِ أبيهِ، ومتألّماً من أجل حصانِ البرْق.

و ما هي إلاّ فترةٌ قصيرةٌ، ويأتيهِ صوتُ "دُرّ ماء":

ـ افتحْ عينَيْكَ.. نحن أمام بيتكم.!!

يمسّدُ الفتى رأس حصانهِ، يقبّلهُ، ويضعُ لهُ اللوز والسُكّرَ.

يربطُ الخروفَ..

ويدخل ليجدَ والدَهُ وقد أنهكَهُ المرضُ وفراقُ ابنهِ الوحيدِ الذي لا يعلمُ عنهُ شيئاً.

وحينما يُقبّلُ الولدُ أباهُ ، يرتعشُ الأبُ وترتجفُ يدُ الفتى وهي تُطعمُ الوالدَ التفاحة . مع كلِّ قطعةٍ،كان الأبُ يستعيدُ جزءاً مِنْ عافيتهِ . وما إن انتهت التفاحة ُ حتى عادَ إليهِ بصرُهُ ، وتحرّكتْ أطرافُهُ ، ونظرَ إلى ابنهِ ممتنّاً ..

وبينما هُما متعانقانِ كوردتَيْنِ مِنْ نورٍ، دخلَ « دُرّ ماء » وقالَ :

– الآن ،

سأخبرُكُمَا

عمّا حدثَ لي :

(٣)

يا سادة .... يا كِرام ....

كانت مملكتُنَا منْ أعظم الممالك. وقد مرَّتْ بفترتَيْن: الظلم، العدل ..

في الفترة الأولى اغتنى الحكّام وفقِرَ الناسُ حتى حفروا المقابر، ربما يجدون ذهباً أو فضةً أو أشياءَ أخرى مدفونة قرب الأموات..

وفي الفترة الثانية، عمَّ الرخاءُ والزهدُ والعدلُ حتى سمعَ أبي يوماً، وفي تمام الساعةِ السادسةِ فجراً طَرْقاً على بابِ قصرِهِ.. وحين فتحَ البابَ لم يجدْ أحداً.. تَكرَّرَ الطرْقُ يومَيْنِ متتاليَيْن.. ولا.. أحد..

وفي اليومِ الثالث، في ذاتِ التوقيت، كان أبي يقفُ خلْفَ الباب.. وحين سمعَ الطرْقَ، فتحَ البابَ بسرعةٍ ليجدَ أمامهُ حمامةً بيضاءَ.. فتبعَها.. وعندما وصلَ إلى عشِّهَا، شاهدَ تنّيناً يأكلُ فراخَها، فقتلَهُ بسيفهِ القاطع ..، وقال كلماتِهِ التي ما زالتْ تحفظُها الصخورُ والينابيعُ والقلوب:

ـ ظلمْنَا ظلمْنَا إلى أنْ نَبشْنَا القبور

رحمْنَا رحمْنَا إلى أنْ أتَتْنَا الطيور

وفـي فترةِ العدلِ هذهِ، جاء مملكتنا متسوِّلٌ غريبٌ، مَثلَ أمام الملكِ راجياً أنْ يعملَ عندَهُ كخادم. وافقَ أبي على ذلك.. ولكنْ.. ما إنْ مضى يومانِ حتى حاولَ هذا المتسولُ خَطْفي، فصرختُ وجاء الحرسُ وقبضوا عليهِ..

أمرَ أبي بسجنهِ، لكنهُ، هربَ منْ بينِ القضبانِ الحديديةِ على هيئةِ حمامة.. وجاء إلى نافذةِ غرفتي وحوّلني إلى الحصان الماردِ الذي أمامكم، ونفخَ على مملكتي فغرقتْ.. ولمْ ينجُ منها أحدٌ سواي..

قاطعَها الفتى :

- لأنكِ قادرة على الطيران.

هزَّتْ رأسَها وألمُها سيطرَ على الجميع، ثم أضافتْ:

- هربتُ وذلك أثناءَ انشغالهِ بتحويلِ نفسهِ مِنْ تلك الحمامةِ إلى ذاكَ الحنشِ الذي يحرس مملكتي، ظاناً بأنني لم أخرجْ منها بعْدُ ..

صمتٌ..

وليلٌ..

وسكونٌ..

وجثّةُ حصان...

لقد ماتَ « دُرّ ماء » .. وروحُهَا المعلّقةُ بالقصةِ لم تنطفئْ..

ماتَ .. ، لأنّ سِرَّهُ انكشف ..

عند هذا المصابِ الأليم، سكتت الشفاهُ، وتحوَّلتْ إلى عينِ الهَرَم..

ثم .. ،

بدأتْ قناديلُ البحرِ بالابتعادِ عن المرجان ..

(٤)

نظرتَ حولكَ..

كانت كائناتُ البحرِ كلُّها تستمعُ معكَ إلى تلك الحكاية..

اقتربْتَ من المرجانِ سائلاً:

- هل ستعطيني المحارة..؟

- إنكَ تستحقها.. هي لك.

بسرورٍ عميقٍ، تحضنُ المحارةَ، وتودِّعُ المرجانَ والكائناتِ البحريّةَ الأخرى ..

ها.. أنتَ تعودُ إلى القارب..

ما زالت الأعشابُ وبعضُ التُّوَيجاتِ تسبحُ على الموج .

تحدِّقُ في الماء :

إنكَ، الآنَ، لا ترى الموجةَ الخضراء.. لقد أصبحتْ كأخواتِهَا..

تفتحُ المحارةَ ببطءٍ ومحبةٍ. فتلمعُ لؤلؤةٌ عجيبةٌ تضيءُ البحرَ.. كأنها المنارةُ التي تهدي السُفنَ.. تعتادُ عيناكَ على الوهجِ.. تمدُّ يدَكَ إلى اللؤلؤة، وحين تلمسُهَا أصابعُكَ، يخرجُ منها صوتٌ شجيٌّ ترقصُ على موسيقاهُ أشعّةُ القمر..!

تلمسُها مرّةً ثانيةً،

فترى أنها تصيرُ وردةً منَ اللؤلؤ.. كلما هبَّ النسيمُ، نطقتْ تويجاتُها بلهجةٍ لم تعرفْها منْ قبْلُ.. ثم عندما ترتفع هذه اللهجةُ عن التويجات تصيرُ كلماتٍ بإمكانكَ قراءتها بصوتٍ مرتفع :

- يا صغيري الشجاع..، منذ قرونٍ عديدة، كان في شمالِ مدينةِ القباب منزلٌ صغيرٌ يسكنهُ زوجانِ ليسَ لديهما أطفال.

و ذاتَ يوم، سمعت الزوجةُ غريباً ينادي:

- تفاحٌ للإنجاب.. تفاح للإنجاب..

هَرعت المرأةُ نحْوَ الصوت :

- بِكَم التفاحة ؟

- لا ثمنَ لها، لأني سآتي بعد خمس عشرةَ سنة لآخذَ الطفلَ الذي ستُنجبينَهُ .

تردّدت المرأةُ بين الرفْضِ والقبول. ثم وافقتْ على الشرط، وأمسكتْ بالتفاحة مطمئنّةً إلى أنّ هذا الرجلَ قد يموتُ خلالَ هذه المدةِ، أو، قد لا يعرفُ الطفلَ ..، فهي لن تعطيه إيّاهُ مهما كلّفَ الأمْر.. فهي ستكونُ أمّهُ.. أليست الحياةُ أمّاً..؟.

قالت ذلك في قرارةِ نفسها، وأخذت التفاحة.. وقبْلَ أنْ تغادرَ جاءها صوتُ البائع :

- كُلِي نصْفها أنتِ.. وليأكلْ زوجُكِ نصْفها الآخر. وحَذارِ أنْ تنسي الشرط.

هزّتْ برأسها وهرولتْ إلى البيت .

قسمت التفاحةَ نصْفَيْن. أكلتْ نصْفاً، وزوجُها أكلَ النصْفَ الثاني.

وبعد مدةٍ، وضعتْ فتاةً جميلةً وذكيّة...

مرّت الأيامُ سريعةً.. وبلغت الفتاةُ آذارَها الخامسَ عشر.. بينما الأمُّ نسيت الأوانَ..

كانت الشمسُ تبتعدُ عن بوّابةِ المدرسة.. ورجلٌ غريبٌ يقترب.. وحالَما تركتْ زميلاتِها، استوقفَها صوتهُ:

- قولي لأمّكِ، هل ستَفِيْنَ بِنذْركِ ؟ أمْ أنني سأقصفُ عمرَكِ؟

و في اليومِ الثاني، صادَفَها الرجلُ سائلاً:

- هل أخبرْتِ أمّكِ ؟

- أوه.. لقد نسيتُ...

إذنْ، ضعي هذه الحصواتِ في جيبيكِ لتتذكّري..

كانت الفتاةُ تدرسُ للامتحان.. فغداً آخر مادّةٍ ستقدّمها . وعندما دخلتْ أمُّها لتطمئنَّ عليها، رأتْها منهمكةً بالقراءةِ والكتابة والتحضير.. فلم تتحدثْ معها. وبهدوءٍ، بدأتْ ترتّبُ الغرفة.. وبينما تعلّقُ ثيابَ ابنتِها المدرسيّة في الخزانة، سمعتْ صوتاً غريباً.. مدتْ يدَها إلى الجيب، وسألت ابنتَها:

- ما هذا يا ابنتي ؟ لِمَ هذهِ الحصى هنا ؟

- أوهْ.. نسيتُ أنْ أخبرَكِ.. فالبارحة، رآني رجلٌ غريبٌ وأوصاني أنْ أقولَ لكِ: هل ستفينَ بنذْركِ؟ أمْ أني سأقصفُ عمركِ؟ وعندما نسيتُ، وضعَ لي هذه الحصوات اليوم.

- يا الله..

صاحت الأمُّ وهي ترتجف.. وكادتْ أنْ تسقطَ على الأرض.

- ماذا أصابَكِ يا أمّي ؟

- لا شيء .. ولكنْ ، منَ الآن فصاعداً ، لن تخرجي منَ البيتِ إطلاقاً.

- لماذا.. ؟ لماذا يا أمي ؟ !!

- لا تسألي . فقط، أطيعي .

- والامتحان..؟!

- قلتُ لكِ اسكتي .

صمتت الفتاةُ والاستفهامُ مرسومٌ على ملامحها مثلما الغرابةُ والتساؤلات ارتسمتْ على ملامحِ الأم التي لم تعلمْ بأنّ بائعَ التفاح هو جنّيُّ القلعةِ الذي كان يترددُ على بيتها دونَ أنْ تراهُ.. يراقبُ الفتاةَ، وينتظرها منذ خمسَ عشرةَ سنة.

في اليوم التالي، لم تخرج الفتاةُ منَ البيت.. لذلك، طرقَ الرجلُ البابَ آملاً أنْ تفي الأمُّ بنذْرِها الذي قطعتْهُ معه.. وعندما ترفضُ، يهددها بأنه سيخطفها.. تُغلقُ الأمُّ البابَ بإحكامٍ ودموعها المغرورقة بين قلبها وعيونها وجسدها بلّلتْ وجهَ الفتاةِ المسكينة.

وذاتَ صباح، تستيقظُ الأمُّ على صوتٍ يشبهُ الصاعقة..

كان الضجيجُ والدخانُ يملآنِ البيتَ.. تحاولُ إيقاظَ ابنتِهَا النائمة قربها، لكنهُ الفراغُ قد ملأ السريرَ.. ولا شيء على الفراشِ سوى

حرارة جسدِ طفلتِها، الحرارة التي انسكبتْ فوقها دموعُ الأمِّ وصراخُها :

- لقد خطفَها.. خطفها.. آه يا ابنتي..

و هناك..،

في القلعةِ المبنيّةِ تحت الأرض، نسمعُ:

- هذه القلعةُ، منَ الآن، هي بيتُكِ.. لكِ أنْ تفتحي كلَّ الغرفِ ما عدا هاتَيْنِ الغرفتَيْن.

كان الرعبُ قدْ أمْرَضَ الفتاةَ.

و بعد أسبوع، نهضتْ من الفراش لتتعرَّفَ على القلعة.

كانت الغرفُ مزدحمةً بالأثاثِ الفاخر والذهبِ والفضةِ والعاجِ والجواهرِ والتُّحَفِ وأشياء ثمينة أخرى..

بحثتْ عن مفتاحَيْ الغرفتين..

و بعد ثلاثةِ أيامٍ،وجدتْ حزمةَ مفاتيح في قطعةِ قماشٍ باليةٍ قربَ سُوْرِ القلعةِ الخلفيّ..

التقطت المفاتيحَ واقتربتْ من الغرفةِ الأولى ... كان أنينٌ خافتٌ يصدرُ منها. جرَّبتْ مفتاحَيْن، ثلاثة، أربعة، فانفتحَ الباب.. ووجدتْ ثلاثَ نساءٍ مربوطاتٍ على ثلاثةِ عواميد .

- مَنْ أنتُنَّ.. ؟ ومَنْ ربطكنَّ هكذا.. ؟ ولماذا؟..

بصعوبةٍ بالغة، وبأنفاسٍ وكلماتٍ متقطّعة، قالت إحدى النسوة:



- نحن زوجاتُ هذا الجنّيّ.. ومثلكِ أتَيْنَا من التفاحة، ولمْ يسجنّا إلاّ عندما رأيناهُ كيف يصيرُ غيمةً من دخانٍ وماءٍ ونارٍ، ثم يدورُ حولَ نفسهِ مُنقلباً إلى أيّةِ هيئةٍ يريدها، وخاصّةً هيئة الكلب الأسود الذي ينْبشُ القبورَ ويأكلُ الجثثَ.

ارتعشت الفتاةُ .. وقبْلَ أنْ تُغلقَ عليهنَّ الغرفةَ، أحضرتْ لهنّ طعاماً.. ويائسةً، اتّجهتْ إلى باب الغرفةِ الثانية.. جرّبتْ عدةَ مفاتيح. أخيراً ..، ينفتحُ الباب ..، فترى أكفاناً كثيرةً مصفوفةً منْ أرضِ الغرفةِ حتى السقف.. ورائحةً كريهةً تعجُّ.. تقفلُ البابَ، وتعودُ مرعوبةً وهَلِعةً.

في اليومِ الحادي عشر من دخولها القلعة..، يأتي الجنّيُّ فيلاحظُ أنّ حزمةَ المفاتيحِ متزحزحةً قليلاً عنْ مكانِها.. يركضُ إلى الفتاة، ويحبسُهَا خارجَ القلعةِ، في غرفةٍ موحشةٍ ومليئةٍ بخيوطِ العناكب، بالغبارِ، وبرائحةِ الرطوبة.. ولا يوجدُ فيها سوى نافذةٍ مغبرةٍ مُسَوّرةٍ وعالية.. يخطرُ للفتاةِ أنْ تستعينَ ببعضِ الحجارةِ المغبرةِ والمكسّرةِ المنثورةِ بينَ أتربةِ الغرفة. تُرتّبُ إحداها فوقَ الأخرى، وبصعوبةٍ، تتوازنُ وتصعد.. ثم، تفتحُ النافذةَ، فيهبُّ هواءٌ منعشٌ يُذكّرُهَا بهواءِ مدينتِهَا.

تنظرُ إلى المشهدِ أمامها.. كأنهُ على سطحِ الأرض:

ترى مقبرةً، وفيها امرأة تبكي على ابنتها وتنوحُ قائلةً:

- أنا لا أخافُ عليكِ منَ القبرِ يا ابنتي.. ولا منَ الليلِ، ولامنَ التراب .. لكنني أخافُ عليكِ منَ الكلبِ الأسود.. !!!..

و قبْلَ أنْ تتركَ المرأةُ القبرَ، وتمضي ..، تصيحُ عليها الفتاةُ منْ نافذتِهَا المُسوَّرة.. فتقتربُ المرأةُ منَ الصوت سائلةً بدهشة :

- ما الذي أتى بكِ إلى هنا يا ابنتي؟!

- إنّ قصتي طويلة يا خالة.. المهمُّ أنْ تُخلّصيني منْ هذا الجنّي..

- هل تقولين : الجنّيّ ؟.. أ تقصدينَ الكلبَ الأسود ؟.. !!!

- نعم.. فهو يدفنُ مفاتيحَهُ قربَ السُّوْرِ الخلفي لتلك القلعة، في قطعةِ قماشٍ بالية.. أرجوكِ أنْ تُحضري المفاتيحَ وتُنقذيني .

تُسرعُ المرأةُ إلى المكانِ الذي أرشدَتْهَا إليهِ الفتاةُ.. وفعلاً، تجدُ قطعةَ القماش.. تركض المرأة.. وتعود إلى الفتاة.. ولاهثةً، ترمي إليها القماشة، فتصطدمُ صرَّةُ المفاتيح بجدارِ النافذة، و.. تسقطُ على الأرض.. تُكرّرُ المرأةُ المحاولةَ حتى تنجحَ.. ثمّ، تهربُ تاركةً للفتاةِ المفاتيح .

كمَنْ قبضَ على السعادةِ الحقيقية، تُمسكُ الفتاةُ بحزمةِ المفاتيح.. وتنزلُ ببطءٍ عن الحجارة.. تجرّبُ مفتاحاً ضخماً فينفتحُ الباب..

أخيراً ..، ربّما نجَتْ.. لِلتّوِّ،

خرجتْ منْ باطنِ الأرض، من تلك الغرفةِ المظلمةِ بنفوسِ ساكنيها.. هل هي حقّاً على وجهِ الأرض؟!

تستنشقُ الهواءَ الرائعَ، فتشعرُ بنغمةِ ناي حزين، تداعبُ وجهَها وتمتدُّ إلى جسدها.. نعم، إنها على سطح الأرض.. فلْتُسرعْ قبْلَ أنْ يأتي الجنّيُّ ويُعيدَها إلى تلكَ الغرفةِ أو يقتلَها أو يأكلَها..

تركضُ الفتاة..

كأنَّ المقبرةَ الواقفةَ بعيداً ...، ستقترب..

وفجأةً ..، منْ خلالِ الخوفِ والحلمِ والحريّةِ تسمعُ الفتاةُ صوتَ رجلٍ إنسيٍّ يصيح :

- زعتر بريّ.. لكَ النكهة ولي التلويح.. آه، يا زعتر..، يا مليح .

- يا عمّ ..، أرجوكَ أنْ تخلّصَني مِنْ زوجي - الكلب الأسود .

لاهثةً، ومُعذبةً، تنظرُ إلى الرجلِ وهو يُفرغُ بعضَ الزعترِ منْ كيسِ حمارِهِ الأيمن ويضغطهُ في كيسهِ الأيسر .

- هيّا بسرعة اختبئي هُنا..

وفي اللحظةِ التي يلقي فيها آخرَ كومةِ زعترٍ على الكيس الموجودة فيهِ الفتاة، يأتي الجنّيُّ بهيئةِ إنسانٍ لطيفٍ ومسكين، ويسأل :

- هل رأيتَ فتاةً ترتدي عباءةً سوداء، هربتْ مني.. إنها زوجتي وأنا أحبّها، وأريدُ أنْ أعيدَها إلى قلعتي.. عفواً، عَفْواً إلى بيتي .

- كيلو الزعتر بـ " كذا ".. لكَ النكهة ولي التلويح.. آه يا زعتر يا مليح..

يعيدُ الجنيُّ السؤالَ على الرجل، فيقول الرجلُ ضاحكاً :

- كيلو الزعتر بـ"كذا".. آه يا مليح..لكَ النكهة ولي التلويح..

يقول الجنـّيُّ :

- إنكَ رجلٌ مجنون .. وحتماً ، زوجتي لن تلجأَ لمجنون .

يهرعُ الجنـّيُّ إلى المقبرة ..

و يهرعُ الرجلُ إلى بيته..

(٥)

عرائشُ الياسمينِ كذكرياتِ العائلةِ تتدلّى مِنَ الجدرانِ، وأغصانُها النديّةُ تمتدُّ منَ الغرفةِ العاليةِ إلى ساحةِ الدارِ التي تتوسَّطُها برْكةُ ماءٍ نظيفة .

رذاذُ النافورةِ يضفي على الهدوءِ موسيقا خاصّة، تتضامنُ معَ حركةِ أيدٍ تُرتّبُ الزعترَ، ومعَ نظراتِ عيونٍ تتّجهُ إلى الباب وهو يُفتَح..

بصوتٍ واحدٍ صاحت البناتُ السبعُ :

- أهلاً بأبيْنَا.. لمْ تتأخر اليومَ، عافاكَ اللّه..

- جئتُ قبْلَ موعدي بسبب مفاجأةٍ جميلة..

ضحكت الفتياتُ وكلُّ واحدةٍ منهنَّ ظنّتْ بأنّ المفاجأةَ لها..

و ما هي إلاّ لحظاتٌ، حتى قالَ الرجلُ :

- الآن، عليكِ الأمان.. اخرجي يا ابنتي الثامنة.. !

تنفضُ " فتاةُ التفاحة " الزعترَ عنْ شعرها وثيابها، وتلتفُّ البناتُ حولها بفرحٍ. أمّا الأمُّ، فَتُفْتَنُ بهذا السحر الباهي..

لقد أشرقَ البيتُ.. فالحُبُّ أخذَ شكْلَ الشمس، وقدَّمت الفتياتُ لأختهنّ الجديدة ثياباً جميلة..

وبعد الطعام، سَرَدَت الفتاة ُللعائلةِ حوادثَ حياتها.. فحَلَّ الحزنُ على العيونِ وسالَ معَ الدمع.. مثلما الليلُ حَلَّ على الوجوهِ وعلى عرائش الياسمين..

لم يزل الخوفُ منَ الجنّـيّ يظهرُ على الفتاةِ، لذلك، اختارت الغرفة العالية ذات الكُوّة الوحيدة..

- إنهُ سيُلاحقُني بالتأكيد.. لا بُد أنهُ يطارد خُطايَ.. أتمنى ألا يجدَني..: قالت المسكينة وهي تبكي مثل نار سَرتْ في الهشيم .

هدّأت الفتياتُ منْ رَوْعِها.. وتركْنَها تنام.. بينما روائح الياسمين تمنح النسائم الليليّة هدوءاً ونعاساً وأحلاماً مريحة .

مِنْ يومِهَا ..، وأوراقُ الشجر تمتصُّ أحزانَ الناس وتتساقط في الخريف.. وحين تستعيد خضرتَها الضائعة تنتعشُ الأنهارُ المتفجّرة منْ أعالي الجبال وتُبدِّلُ الفصولَ..

و.. يستمرُّ الجنيُّ بالبحث دونَ أيّ كلَل ..

وفي يوم منْ أيام الربيع،

وبينما الفتاة تنظرُ منْ كُوّة غرفتها،

رآها ابنُ ملك هذه المدينة.. فأعجبَ بها، وتمنّاها زوجة له..

تُرى، هل سيتحوّلُ الحلمُ إلى حقيقة ؟

أم أن للقدَر كلمة أخرى لا تعرفُهَا القصة ؟

(٦)

قصرُ الملك بقبابهِ المُذهَّبة يطلُّ على غرفة الفتاة، ويلمعُ كالأفق في عينيها..

الأفق اللامعُ مثل حلم يرف مع أجنحة الحمام كان يُشرفُ، كالقصر، على كلِّ منازل ودكاكين وحدائق المدينة..

ومنْ داخله ، نسمع :

- أرجو أنْ تذهبي لخطبة تلك الفتاة، سيدتي الملكة .

- إنكَ ابنُ ملك .. ولا يجوز أنْ تُصاهِرَ العامّة.

- أرجوك يا أمي.. فأنا منذ فترة أراقبُ هذه الفتاة.. إنها فنانة ، ومهذبة ، وكثيرة القراءة، ودائماً ..، تتأمّلُ السماء مِنْ غرفتِهَا التي لا تغادرُهَا.. كأنها تمزج بينَ الحزن وأجنحةِ الحمام والأفق البعيد وقلبي ... ! آه..، قلبي..

- لا ..، لن ... أفعل .

صوتٌ كرعد غاضب يتغلغلُ كيانَ الأمير، فيمرضُ مرضاً شديداً.. يصفَرُّ وجهُه، ينْحلُ جسدُه، ويُضرِبُ عن الأكل والشراب والكلام.

أخيراً، يعلمُ المِلِكُ بمرض ابنهِ الوحيد، فيُحضِرُ أطباء من مختلف أنحاء العالم.. لكنّ المرضَ يشتد، ويشتدّ.. ويبدأ رجالٌ بالإعلان عنْ حالةِ وليِّ العهد، وعنْ مكافأة المِلِك.. :

- بُم ... بُم ... بُم ..

رجلٌ لَفَّ على خصرهِ زنّاراً عريضاً مِنَ المخمل الأسود يقرع الطبلَ:

- بُم .. بُم .. بُم م م م .. م .. م ...

و رجلٌ آخر يفتح خطابَ الملك المكتوب على ورق البُردي قارئاً :

- الحاضرُ يُعلِم الغائبَ

إنّ ملِكَ مدينة القباب والسحر

سيكافئُ مَنْ يشفي ابنَه المريض بتزويجه من ابنتهِ الأميرة إذا كان عازباً.. وإذا كان متزوجاً، فسيهديهِ ألْفَ صندوق منَ الذهب والمجوهرات النادرة.

- بُم .. بُم ... بُم .. مْ مْ مْ مْ ...

الحاضر يُعلِم الغائب

مَنْ يشفي الأميرَ سيصبحُ رئيسَ أطبّاء المدينة..

بُم ... بُمْ مْ مْ ...

كلُّ أطباء البلدان قَدِموا لمعالجة الأمير. ولم .. يُفلح أحد منهم أبداً..

وذاتَ يوم، مرَّ رجلٌ غريبٌ بمدينة ذات القباب..، وسمعَ الإعلان..، فهبَّ لنجدة الأمير دون رغبة في أيّة مكافأة..

بوقار شديد ، قالَ الغريبُ لحاجب القصر :

- أريد رؤية الملك بشأن ابنه المريض .

كانت حالة الأمير تزداد وَهْناً ، وسُوءاً.. وكأمل أخير أتى هذا الرجلُ المجهول . ..، فوافق الملك ملهوفاً :

– إنّ ابني يُحتضَر .. بينَهُ وبين الموت مسافة زمنيّة قصيرة.. ولم يعرف أحد علّتَه .. فأرجوك .. أنْ تساعدَه على الشفاء.. إنه لا يأكل ولا يشربُ ولا يتكلّم.. وأنا أصلّي للّه ..، وأدعو له بالعافية .

– دعْني ألقي عليه نظرة ، جلالة الملك .

– أيها الحاجب، خذ الطبيبَ إلى غرفةِ الأمير .

دخلَ الرجلُ..

كانت الغرفة تعاني منْ صمت مطبق .. والأميرُ بهيئة جنائزيّة يتمدّد على سرير فخم تتسدلُ ستائرُه الزرقاء بجاذبيّة لتُشكّلَ على الجدران والشرفة فراشة عملاقة تعكسُ ظلّها الشفّاف على الملكة التي فضّلتْ موتَ ابنها على تزويجهِ منَ العامّة.

الملكة التي تُطبق فمَها على كلام كثير لا تريد البوْح به، تديرُ وجهَها عن نظراتِ ابنِهَا المعاتِبة ، وتسكبُ الدموع مدراراً..

جلسَ الرجلُ . مسَّد جبينَ الأمير، وطلبَ باحترام شديد منَ الملكة أنْ تدعَه وحيداً معَ المريض .

هذا الغريبُ ساحر .. ونواياه مشْبَعة بالخير، لذلك، فهو صديق لجنّيٍّ طيّب ظهرَ عليهِ في إحدى الليالي :

تحديداً، في تلك الليلة التي كان فيها القمرُ بنفسجيّاً تماماً، حينما كان الرجلُ يُشعلُ بخوراً في كوخهِ المنتصب وحيداً على قمّة الجبل.. كانت الجمراتُ تحترقُ ببطء ، والبخورُ الذي يغطّيها يمنحُ الريح والجذوع رائحة غريبة ولذيذة.. وبينما تجاوزَ الليلُ نصْفَ عتمة السماء، قامَ الساحرُ إلى كوخهِ لينامَ، فرأى في فراشهِ هذا الجنّيَّ ينتظرهُ..

- لم آت لأؤذيك .. فلقد أحببتُ صوتَك وعملَكَ الخيّر.. لذلك جئتُ لمساعدتكَ في شفاء الناس.. فإذا دخلْتَ على مريض ورأيتَني أجلسُ عند رأسهِ، فاعلم أنه قابلٌ للشفاء.. وإذا جلستُ في مكان آخر، فاعلم أنني لا أدري إنْ كان سيموتُ أمْ سيشفى.. فالعلْم بيدِ الله..

وها هو الجنّيُّ الطيّب يجلسُ عند رأس الأمير هامساً :

- إنه الحُب ..

ابتسمَ الرجلُ ابتسامة خفيفة.. وغادر الغرفة.. ولـمّا مَثلَ أمام الملك، قال :

- إنّ ولدكَ سيشفى بإذن الله إنْ زوَّجْتَه ممّنْ يُحبّ ..

نادى الملك زوجتَه، وأخبرَها بالدواء.. فارتبكتْ قائلة :

- إنه يحبُّ ابنة بائع الزعتر البرّيّ.. تصوَّر..!!!

- و لماذا لم تخبريني ؟ أ يُرضيك أنْ يموتَ ولدُك ؟ أمْ أنْ يتزوج من تلك الفتاة؟ أ لا تعلمينَ أنه لا فضْلَ لإنسان على إنسان إلا بالتقوى.. ؟

غضبَ الملك من أم الأمير ..، وأمرَها بالذهاب، حالاً، إلى بيت بائع الزعتر.

بغرابة لا حَد لها استقبلتْها العائلة الطيبة ..

وهنالك، تحت عرائش الياسمين والدهشة، أجابَها الرجلُ لطلبها حين وافقتْ فتاة التفاحة .

قرَّرَ الملكُ العرسَ مع دعوةِ والدَيّ الفتاة وبائع الزعتر وزوجتهِ وبناتهِ السبع..

انشرح صدرُ الأمير بالخبر، وعادتْ بسمتُه، فأكلَ وشربَ وتحدّثَ بمرح.. وها هو يستعد لليلة الزفاف ..



(٧)

ضجّتْ مدينة القباب بالأفراح والزينة والحَمام والألعاب الناريّة..

واستمرَّ العرسُ سبعة أيام بنهاراتها ولياليها ..، وتداولتْ أخبارَه البلدان الأخرى..

إذنْ، عَلِم جنّيُّ القلعة بالخبر، أيضاً.. وسرعانَ ما حَوَّل نفْسَه إلى سجّادة مزركشة بألوان نادرة ، وفتح طرفَها في أشْهر متاجر السجّاد حيثُ كانَ واحد منْ أصدقاء الأمير يبحثُ عن هديّة غريبة عجيبة..، فرآها تُناسبُ أميرَه .. اشتراها، وأهداها ، في اليوم الثاني، لوليِّ العهد.

وضعَ الأميرُ السجّادة في غرفته.. وعندما هبط الليل على المدينة، وهبط النوم على الزوجَيْن، فجأة..،

يستيقظ الأمير على صوت عروسه:

- آه، السجّادة..
- ما بك ؟! ماذا..؟!!
- السجّادة.. ه، إنها.. إنها سَـ تَـ خْـ نـ قُـني.. ستخنقُنِي ..
- لكنها جماد ولا تقوى على الحركة..
- إنها مسحورة..

كرّرت السجادة محاولة خنْق الفتاة.. وتكرّرَ الصراخ.. وتكرّرَ استيقاظ الأمير الذي قرّرَ أنْ يحرقَ السجادة بنفسهِ منتقماً لأميرتهِ الواقفة قربهُ وهي تراقبُ نهاية الجنّيّ..

وبينما النيران تلتهمُ الألوانَ والخيوط، وتشتعلُ أكثر، فأكثر..، وبينما الدخان المرعبُ يعلو مُصْدِراً أصواتاً وأنيناً..، تسقط الأميرة ميتة..!

لقد طارتْ عظمة منْ عظام الجنّيّ واستقرّتْ في صدرها..

لم يرَ الأميرُ العظمة وهي تدخلُ صدرَ حبيبته، لكنهُ أرسلَ في طلب الأطباء الذين قرّروا وفاتها..

وبعدما يئسَ منْ إيجادِ الغريب الذي شفاه، بعدما.. يئسَ منْ شفاء أميرته، أقسم ألا يلمسَ جسمَها الترابُ.. فأمرَ بصنْع بيت زجاجيّ تُسَجَّى فيه، وأمرَ بأنْ تُكَلَّلَ بكلّ أنواع الورود، وبالحنّاء والغار.. وكلَّف أمْهرَ صنّاع الزجاج في العالم..

ثمّ..، وضعَ هذا البيتَ الزجاجيَّ على ظهْر جَمل، وعند المنحدر الشرقيِّ للمدينة، قال له:

- اذهبْ..، فأرضُ الله واسعة...

(٨)

سارَ الجَملُ دونَ وجهة..

قطع صحارى وصحارى..

وبينما كانت مجموعة منَ الأمراء تمارسُ هواية صيد الغزلان والطيور، انتبهَ ابن ملك المدينة الصديقة لمدينة القباب، فأشارَ لأصدقائهِ قائلاً:

- يا شباب، إذا كان هذا الجَملُ يحملُ ذهباً ومجوهراتٍ وبضائعَ فهي لكم.. وإذا كان يحملُ ضيفاً فهو لي..

ضحكَ أصدقاؤهُ وتراكضوا.. فرأوا فتاة ميتة..، مُسجّاة في بيت زجاجي.

كان وجهُها ، رغم الموت، يضيءُ كأنهُ قنديلٌ بمليون شعلة..

حَزِنَ الأميرُ وأصدقاؤهُ على هذه الفتاة المجهولة المزيَّنة بالبنفسج والزنابق والنرجس والحنّاء والغار..، وأخذوها معهم.

وحالَما وصلوا القصر، طلبَ الأميرُ القيام بمراسم الدفْن التي تليق بملكة رائعة.

وصلتْ يدُ إحدى النساء إلى صدر الفتاة وهي تلبسها، اصطدمتْ بعظْمة العفريت، فشهقت الجثة..! ارتعبت النسوة ..

أعادت المرأة يدَها إلى صدر الفتاة، بجانب القلب، فانتفضت ..، وشهقت ..، وَ.. تحرّكَ رأسُهَا..!!

نظرت المرأة، فرأتْ شيئاً بارزاً يَخِز إصبعَها، واللحم حولهُ هالات زرقاء، وبنفسجية، وحمراء.. حاولت المرأة أنْ تُخرجه، فشدّتْه.. كمْ، كان ..، قويّاً.. شدتْه وشدّتْه .. وحين انفلتتْ عظْمة الجنّيّ، وأصبحتْ بيد المرأة، صرخت الفتاة.. فانذهلت النسوة، والتأم مكان الجرح تلقائيّاً.. فالسحرُ قد زالَ تماماً..

- أين أنا.. ؟ أرجوكم غطّوني..

حملتْ إحدى النسوة البُشرى إلى الأمير :

- الميتة استيقظتْ يا مولاي.. إنها حيّة الآن..!

دُهِشَ الأميرُ، وأمرَ بإحضارها..

حكتْ فتاة التفاحة للأمير كلَّ ما جَرى لها، ودمعُها المتبقّي في العينَيْن يلمعُ ويطغى على الذهول المخيِّم في القصر.. !

- اطمئنّي.. أنتِ أختي وزوجة أعز أصدقائي.. سأعيدُك إلى مدينتكِ الآن ..

ثم، خاطبَ الحراسَ :

- هيّـا ..، جهّزوا موكباً منَ القوافل المُحَمَّلة بأثمن الهدايا.. ولْـنَـتّجه إلى مدينة القباب.

سارَ الموكبُ العظيم مسافة عشرة أيام ..

كانت مدينة القباب معلِنة الحِداد . فلقد دُهِنَتْ كلُّ قبابِها بالأسود ، وأعلامُهَا صارتْ سوداءَ مُنكَّسة.. وصمت رماديٌّ يتدلّى منْ كلِّ مكان..

أخبرَ الحراسُ الملكَ والأميرَ بزيارة صديقِهم، فاستقبلاهُ بأسى لا يعرفُ الفراق ..

- لقد أتيت لكَ بأثمن هدايا العالم .

- أشكركَ.. أنا لا أريد أية هدية .. فلقد فقدتُ الأغلى ..، وَ.. إلى الأبد..

قال الأميرُ ذلك والدموع لا تفارقُ عينيْهِ.. الدموعُ تنفرُ حتى منْ صوتهِ المبحوح وقلبهِ المجروح..

- بلى، إنها الهدية الأغلى..

ولم ينتظر الأميرُ الضيفُ ردّاً وقبولاً ..، بل، أمرَ حاشيتَه :

- هاتوها..

فأتتْ فتاة التفاحة والبسمة التي تشق طريقَها منْ دموعِهَا تنعكسُ على وجهِ الأمير وتُنيرُه .

تقدَّمتْ سبعَ خطوات إلى الأمام، وسبعَ خطوات إلى الوراء، وحيَّتْ زوجَها ووالدَيهِ ووالدَيْها بكلِّ أدب ولطف ومحبة.. فنهضَ الجميع والذهولُ والفرحُ وعدمُ التصديق حَلّوا مكانَ الحزن..

قصَّ الأميرُ الضيفُ تفاصيلَ المفاجأة..

وتقديراً لتعاملِه الصادق، ولوفائهِ العميق، قرّرَ الملكُ أنْ يزوِّجَه ابنتَه .. فصارَ الفرحُ فرحَيْن ..

واستمرّتْ حفلة الزفاف، هذه المرة، أشهُراً طويلة..، حضرَها بائع الزعتر وعائلتهُ أيضاً، كما حضرَها كلُّ ملوكٍ وأمراء المدن..، وازدحمت الشوارع بحلقات الدبكة..، بالزينة، وبضحكات الأطفال..

منْ يومِهَا..، ومدينة القباب والسحر ملوّنة بالأبيض والأحمر والأزرق والأسود ..

(٩)

كانت تلكَ آخر الكلمات التي قرأْتَها منْ وردة اللؤلؤ..

فبعدما سردَتْ لكَ اللؤلؤة حكايتَها، انطفأ وهْجُهَا، وتحوّلتْ إلى قطرة ماء نزلتْ منَ المحارة إلى البحر..

كان الشفقُ يلمع في الآفاق..

ورائحة الفجر تقترب..

تتذكّرُ بأنّ أباكَ قال لك :

- انتظرْني في القارب.

وحين تُمسكُ بالمجاديف، تُفاجئُكَ أصواتٌ تعلو مع هدير الموج:

- إنكَ بطل.. ووحدَكَ مَنْ فَهِم لغة البحر ..

تتلفّت..فترى والدَكَ وأصدقاءَه في قارب آخر وراءكَ..

بابتسامة مؤنّبة يقولُ أبوكَ:

- مِنْ أجل المحارة سامحتُكَ هذهِ المرّة.. إيّاكَ أنْ تخالفَ كلامي في المرّة القادمة..

- أنا آسف جداً يا أبي.. أعدُكَ ألا أكرّرَ أخطائي.

وبينما أنتَ محاط بمهرجان هائل شكّلتْه أسرابُ النوارس في السماء، والكثير مِنَ السفن والبواخر المختلفة والمتموِّجة يأتيكَ صوتُ

ربّان أحد المراكب، صوتٌ تُطابقُه معَ مُحَيّاه، فلا تشك بأنه ذاك الربّان الذي نبَّهك إلى ارتداء معطفك :

- لقد ضيَّعْتَنا.. ها ها ها.. فَمِنْ شدّة لمعان اللؤلؤة حسبناها منارة المدينة، فأخطأتْ بوصلتُنَا الجهات .. لكننا لمْ نُخطئْ حين أصْغَيْنَا.. فلقد علَّمْتَنا كيف نفهمُ لغة الأشياء، وكيف نبحثُ عنْ جذورِنَا في تاريخ مدننا..

صمت ..،

وهدير..

هديرٌ ..،

وصمت..

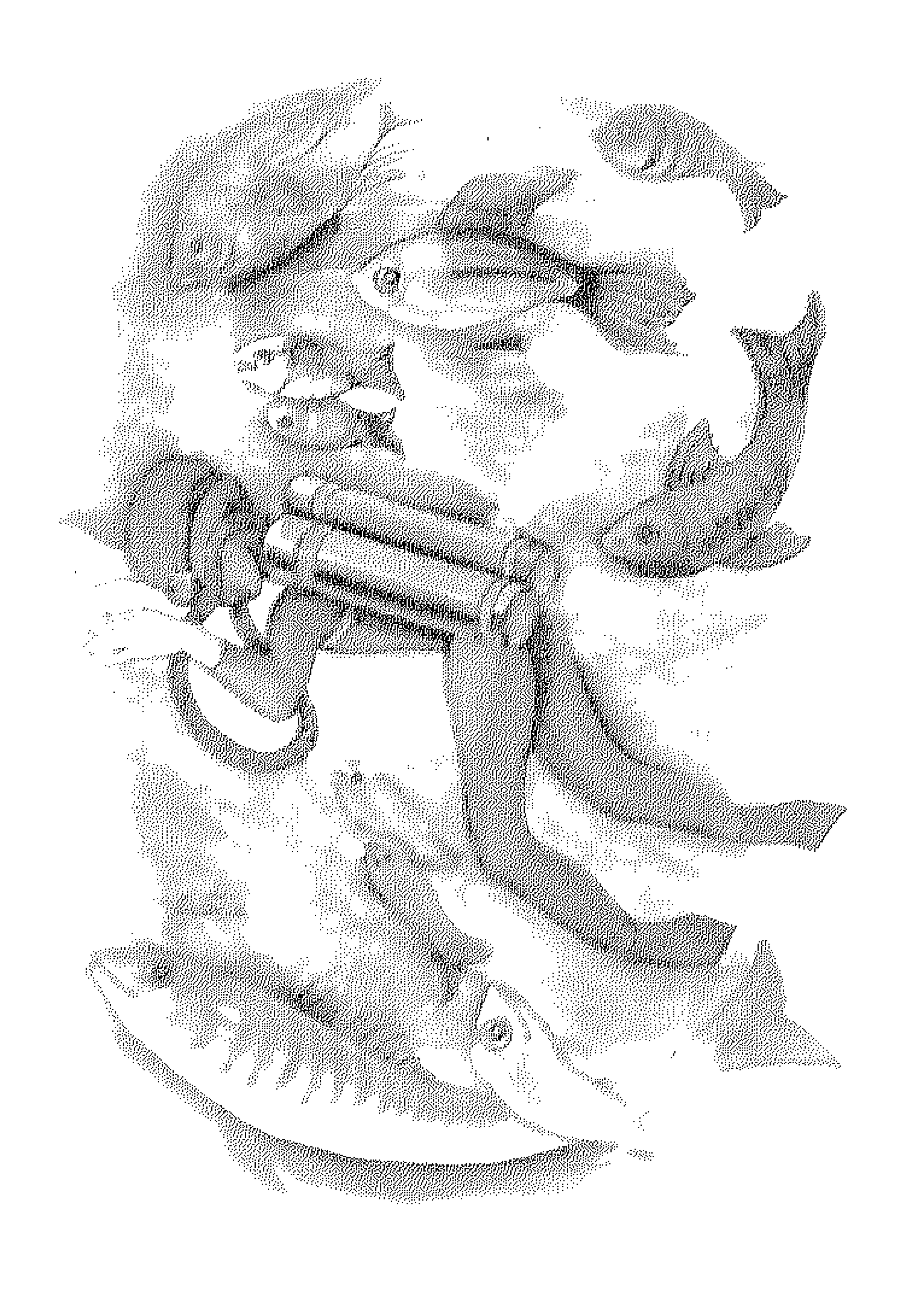
كأنّ الشمسَ تحرّرَتْ منَ العتمة حين سمعت القصة، فأضاءتْ قبابَ المدينة، وغاصَ قوسُ قُزح في الموج..

و الموج يُعيد كلام النورس العجوز :

- كان يا ما كان ... في هذا الأوان ...

الطبعة الأولى / ٢٠٠٥

عدد الطبع ١٥٠٠ نسخة



سعر النسخة داخل القطر ٦٠ ل.س ٢٠٠٥ في الأقطار العربية ما يعادل ١٢٠ ل.س